برنامج الدَّرس الواحد السادس

الدَّرس (17)، /1428

تطريز

فضيلة الشيخ صالح بن عبد الله العصيمي

حفظه الله تعالى

رسالةٌ في القرآن وكلام الله

للعلامة موفق الدين ابن قدامة المقدسي

المتوفى سنة 620 رحمه الله

النُّسخة الإلكترونيَّة (الأولى)

الشيخ لم يراجع التفريغ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّنا، وأشهد ألَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أمَّا بعد؛ فهذا هو الدرس **السابع عشر** من برنامج **الدرس الواحد السّادس**، والكتاب المقروء فيه، هو: «**رسالةٌ في القرآن وكلام الله**» للعلاّمة ابن قُدامة المَقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقبل الشُّروع في إقرائه لابد مِن ذِكر مقدِّمتين اثنتين:

المقدِّمة الأولىٰ: التَّعريف بالمصنِّف؛ [وتتضمَّن] ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: جَرُّ نسبه؛ هو الشيخ العلامة الفقيه، عبد الله بن أحمد بن محمد الصَّالحي الدِّمشقي، يُكْنىٰ بأبي محمَّدٍ، ويُعرف بمُوفَّق الدِّين، وبابن قُدامة.

ولقَب (ابن قدامة) يَقَعُ علىٰ جَمْعٍ من العلماء يرجِعون إلىٰ بيتٍ واحدٍ؛ لكن المراد منهم عند الإطلاق هو أبو محمدٍ عبد الله بن أحمد صاحب «المُغني».

المقصد الثاني: تاريخ مولده؛ وُلد في شهر شعبان، سنة إحدىٰ وأربعين وخمسمائة (541).

المقصد الثالث: تاريخ وفاته؛ تُوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوم السَّبت، غُرّة شوال، سنة عشرين وستمائة (620)، وله مِن العُمُر تسعٍ وسبعون (79) سنةً رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمةً واسعةً.

المقدِّمة الثانية: التعريف بالمُصَنَّف؛ وتنتظم ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: تحقيق عُنوانه؛ لم تحمل النسخة الخطية للكتاب اسمًا يَختصُّ به، واختار المُعتنِي نَشْرَها بهذا الاسم، ولو أنّه أثبت كونها فُتيا لكان أتم، فسماها: «فُتيا في كلام الله»؛ لأنَّ أصلها جوابٌ عن سؤالٍ رُفع إلىٰ ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

المقصد الثاني: بيان موضوعه؛ موضوع هذا الكتاب؛ هو: إبطال قَوْل مَن قال: إنَّ كلام الله معنًىٰ قائمٌ بنفسه، وأنَّ القرآن الكريم هو حكايةٌ وعِبارةٌ عن ذلك المعنىٰ.

المقصد الثالث: توضيح منهجه؛ جرىٰ المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ علىٰ نَصْبِ الحق في هذه المسألة بطريقين اثنين:

أَوَّلُهما: بيان كون الأدلة الشَّرعية مِن القرآن والسنة والإجماع هي علىٰ خلاف هذا القول.

وثانيهما: إيراد الاعتراضات علىٰ مَن يَنتحِلُ هذا القول، ومُطالبتهم بالحُجَّة القاطعة التي حَمَلَتْهُم علىٰ انتحاله.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ما يَقُول الفقهاءُ أئمة الدِّين وسادات المسلمين -وفَّقهم الله بتوفيق العارفين- فيمن يعتقد أنّ كلام الله تعالىٰ معنًى قائمٌ بالذات؟ وأنّ هذه السُّور والآيات والحروف والكلمات التي هي في مصاحف المسلمين وصُدُور الحافظين ليست كلامَ ربِّ العالمين؟

أهُم أهل السنة والجماعة الذين وَافَقُوا أئمة دينهم، وتمسَّكُوا بسنة نبيِّهم، وَقَفَوا طريق صالح سالفهم؟

أمِ الذين قالوا: إن القرآن الكريم والكلام القديم الذي هو كلام الله العظيم هو هذه السور والآيات والحروف والكلمات التي فيها مصاحف المسلمين وصُدور العالمين؟

وأيُّ الفريقين أَتْبَعُ للحق مِن ربه، وتمسك بسنة نبيه، وَقَفىٰ طريق صالح سَلَفه؟

أفتونا مأجورين مثابين.

أجاب الشيخ الإمام العالم العلامة موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

الحمد لله رب العالمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

إنّ القرآن العظيم الذي هو كلام الله القديم، المُنَزَّل علىٰ قلب سيد المرسلين، هو هذا الكتاب العزيز المُبين، المكتوب في المصاحف، المحفوظُ في الصُّدور، وهو سورٌ مُحكماتٌ، وآياتٌ بيناتٌ، وكلماتٌ تاماتٌ، مَنْ قَرَأَهُ فأَعْرَبَهُ فله بكل حرفٍ عشرُ حسناتٍ، أوله سورة الفاتحة وآخره الناس.

سمَّاه الله تعالىٰ: قُرآنًا، وفُرقانًا، وكتابًا، وذِكرًا ورُوحًا، ونورًا، وضياءً، وهدًىٰ، **ووصفه بكونه:** عربيًّا وهاديًا ورحمةً وشفاءً، يُنذر ويُبشر، ويَهدي ويَقُصُّ، ويُقرأ ويُتلىٰ ويُسمع ويُحفظ ويُكتب.

نزَّله الله تنزيلًا، ورَتَّلَهُ، وسمَّاه قولًا ثقيلًا، وفضَّله علىٰ سائر الكتب تفضيلًا، وأُحكمت آياته ثم فُصِّلت تفصيلًا.

أَمَرَ اللهُ بترتيله، وامتنَّ بتنزيله، وشهد الله والملائكة بإنزاله إلىٰ رسوله، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ [آل عمران:7].

ندب اللهُ إلىٰ الاستعاذة عند قراءته، وأَمَرَ بالاستماع والإنصات عند تلاوته، فمَن اعتقدَ أنه هو القرآن فقد أصاب، وهُدي إلىٰ الصراط المستقيم، واعتقد مُعتقد المُسلمين.

ومَن زعم أنَّ هذا الكتاب غير القرآن، وأنه كلام المخلوقين، وأنَّ القرآن معنًىٰ في النفس لا يُنَزَّل ولا

يُقرأ، ولا يُسمع ولا يُتلىٰ، ولا يَنفع، ولا له أوّلٌ ولا آخر، ولا جُزءٌ ولا بَعْضٌ، ولا هو سورٌ، ولا آياتٌ وحروفٌ، ولا كلماتٌ، فهذا زنديقٌ رَادٌّ علىٰ ربِّ العالمين، وعلىٰ رسوله الصادق الأمين، مُخالِفٌ لجميع المسلمين، ناكبٌ عن الطريق المستقيم.

بَيَّن المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في هذه الجملة توطئةً للأدلة المُستقبَلة: تحقيق أن القرآن العظيم هو كلام الله القديم الذي أنزله علىٰ قلب سيِّد المرسلين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنّه هو هذا الكتاب العزيز المكتوب في المصاحف، المحفوظ في الصّدور، وأنّه سورٌ مُحكماتٌ، وآياتٌ بيِّناتٌ، وكلماتٌ تامّاتٌ، وأنَّ مَنْ قرأه فأعرَبَهُ فله بكل حرفٍ عشرُ حسنات، أوله سورة الفاتحة وآخره سورة الناس.

ومعنىٰ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (إنَّ القرآن العظيم الذي هو كلام الله القديم)، (القديم) هنا صفةٌ للكلام، وليست صفةً لله.

وقد فَرَضَ المُعتنِي أنَّ القديم يجوز أن تكونَ صفةً للكلام فتكون مرفوعةً، ويجوز أن تكون صفةً لله فتكون مجرورةً.

وهذا الذي افترضه مَرْدُودٌ عليه بنص السؤال، فإنَّ نصَّ السؤال فيه الإشارة إلىٰ أن المقصود وَصْفُ كلام الله عَزَّ وَجَلَّ بهذا الوصف، لا وَصْفُ الله عَزَّ وَجَلَّ به؛ لأنَّ السائل قال في سؤاله: (**أم الذين قالوا: إن القرآن الكريم والكلام القديم**)، وهاهنا لا يحتمل المقام إلا إرادةَ وَصْفِ الكلام بهذا الوصف.

وإذا تقرّر هذا وأنَّ (القديم) هنا لا يَجُوز فيها إلا الرفع تبعًا للسؤال فتكون صفةً لكلام ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ= فلْيُعلم أن الاقتصار علىٰ وَصف كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه قديمٌ ليس مِن طريقة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالىٰ إلَّا علىٰ إرادة إثبات نَوْع الكلام؛ أنّ كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قديمٌ، بمعنىٰ: أن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يزل متكلِّمًا ولا حدَثَ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الكلام وصفٌ لم يكن له مِن قبل؛ فهو بهذا الاعتبار يُوصف بالقِدَم؛ لكن الاقتصار علىٰ هذا دون التَّنبيه إلىٰ حُدوث الآحاد وتجدُّد الأفراد هو الذي يُخالِف طريقة السلف؛ فإنَّ السلف يقولون: **إنَّ القرآن كلام الله قديمُ النوع حَادِثُ الآحاد**، ومعنىٰ (**قديم النوع**): أن أصل صفة الكلام قديمةٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يزل الله عَزَّ وَجَلَّ متَّصفًا بها، ثم تحدث آحاد القرآن وأفراده شيئًا بعد شيءٍ، فإنَّ نزول بعض السور يُقْطَعُ بأنه وقع بعد السور؛ كما يعرفه مَنْ نَظَرَ في علم المُنَزَّل علىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وحينئذٍ؛ فإنَّ مَن أراد وَصْفَ كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالقِدَم فإنه ينبغي أن يقول: إنَّه قديم النوع حادث الآحاد.

وأما الاقتصار علىٰ وَصْف كلام الله عَزَّ وَجَلَّ بالقِدَم دون إثبات تجدُّد أفراده وحدوثها؛ فإنَّ هذا علىٰ

غير طريقة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

ثم وقع في كلام المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في هذه الجملة أيضًا قوله: (مَنْ قرأَه فأَعْرَبَهُ فله بكلِّ حرفٍ عشر حسنات)، ومراده بقوله (فأعربه) يعني: بيَّن مخرجَه وأدَّاه أداءً صحيحًا، وهذا المعنىٰ صحيحٌ، فإن الأجر إنّما يكون علىٰ قدْر العمل، والذي يقرأ القرآن ويُبيِّن حروفه يتحقَّق السامعُ أنه قرأ حَرْفًا مما سمعه منه، ثم قرأ حرفًا آخر، ثم قرأ حرفًا آخر؛ حتىٰ استوىٰ كلمةً فكلمةً فكلمةً؛ فحينئذٍ يكون له بكل حرفٍ عشر حسنات.

أمّا من قرأه علىٰ الهذرمة دون بيان الحروف؛ فإنه لا يُجزم بأنه قرأ كلَّ حروف ما يسمعه السّامع منه؛ بل ربما أنتجت الهذرمة تَرْكَ بعض الحروف، ولذلك كان السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالىٰ علىٰ ذَمِّها وعَيْب أهلِها.

فهذا معنىٰ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (مَن قرأه فأعربه)، يعني: بَيَّنه وأوضحه وأخرجه مخرجه اللائق به.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **سمّىٰ كتابه:** قرآنًا وفرقانًا وكتابًا وذِكْرًا ورُوحًا ونورًا وضياءً وهدًىٰ، **ووصفه بكونه:** عربيًّا وهاديًا ورحمةً وشفاءً، يُنذر ويُبشر، ويهدي ويقُص ويُقرأ ويُتلىٰ ويُسمع ويُحفظ ويُكتَب، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَزَّله تنزيلًا، ورتله ترتيلًا وسماه قولًا ثقيلًا، وفضله علىٰ سائر الكتب تفضيلًا، وأُحكمت آياته ثم فُصّلت تفصيلًا.

ووَصْفُ القرآن بأنه قولٌ ثقيلٌ؛ يُراد بذلك ثِقل العظَمة والجلال، لا ثِقل الغموض والمشقَّة، فإنَّ القرآن الكريم بريءٌ من مَعَرّة الغُموض والمشقة؛ بل قد يسّره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للخلْق كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [القمر]؛ فمعنىٰ التيسير الوارد في الآية: أن القرآن يتيسَّر حِفْظُه وفَهْمُه ومعرفة مقاصده.

والمعنىٰ في وصفه بالقول الثقيل ثِقل الجلالة والعظمة؛ لأن القرآن هو مِن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله عَزَّوَجَلَّ عظيمٌ، وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عظيمةٌ، ولهذا لا يتيسر تعظيم القرآن وإجلاله لكلِّ أحدٍ لِثقله علىٰ النفوس، فكلما زكت النفس كلما أمكنها أن تحمل القرآن وأن تمتثل حدوده وحقوقه.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَمَرَ بترتيله، وامتنَّ بتنزيله، وأشهد نفسه ملائكته بإنزاله علىٰ رسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وندَب إلىٰ الاستعاذة عند قراءته، وأمر بالاستماع والإنصات عند تلاوته: فكلُّ هذه الأحكام الخبرية والطّلبية المتعلِّقة بالقرآن مما ورد في آياته تدلُّ دلالةً قاطعةً علىٰ أن القرآن الذي تتعلّق به هذه الأحكام هو القرآن الذي بأيدي النّاس؛ مما هو بين دفَّتي المصحف.

ومَن اعتقد أنَّ هذا هو القرآن فقد هُدي إلىٰ الصراط المستقيم، واعتقد اعتقاد المسلمين، أمَّا مَن زعم أن هذا الكتاب الذي بأيدي الناس هو غير القرآن، وأنه كلام المخلوقين: إمّا كلام محمدٍ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو كلام جبريل، أو غيره، وأنّ حقيقة القرآن أنه معنًىٰ في نفس الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قائمٌ بها غير مُنفصلٍ عنها، لا يُنَّزل ولا يُقرأ ولا يُسمع ولا يُتلىٰ ولا ينفع وليس بسورٍ ولا حروفٍ ولا كلماتٍ؛ فهذا علىٰ غير هدي السُّنّة والجماعة، وقد وصفه رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ بالزّندقة؛ استبشاعًا لهذه المقالة، لما تضمَّنت مِن الردّ علىٰ ربِّ العالمين وعلىٰ رسوله الصادق الأمين وعلىٰ مخالفة جميع المسلمين.

ثم يشرع بعد ذلك رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ يُبيِّن وُجوه رَدِّه علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وعلىٰ رسوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومخالفته لجميع المسلمين فيما انتحله من مذهبٍ.

❁❁◊❁❁

أما ردُّه علىٰ الله سبحانه:

[1] فإن الله تعالىٰ قال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل]، وقال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء]. والذي يُرتَّل ويُنزل ويُقرأ إنما هو هذا الكتاب.

[2] وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:9]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ﴾ [النمل:76]، وهذا إشارةٌ إلىٰ حاضرٍ، والذي يقص ويهدي إنما هو هذا الكتاب العربي.

[3] وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء:41]. وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم:58]، والذي صُرِّفت فيه الأمثال وضُربت إنما هو هذا الحاضر.

[4] وقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء:88]، ولا يتحدَّاهم بالإتيان بما لا يعرفونه ولا يدرون ما هو.

[5] وسمّاه الله عربيًّا، وأخبر أنه هو الكتاب؛ فقال تعالىٰ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف]، وقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف]، فمَن أنكر كون القرآن هو الكتاب العربي، فهو مِن الذين لا يعقلون.

[6] ومِن أوضح الدّلائل علىٰ ذلك: أن الكفار قالوا: هذا شعرٌ، فرد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَمَا

عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴿٦٩﴾ [يس]، وما ليس بحروفٍ لا يجوز أن يكون شِعرًا عند أحدٍ، فلما سَمَّوْه شِعرًا عُلم يقينًا أنهم إنَّما أرادوا بذلك هذا النظم العربي، فلما نفىٰ الله عنه كونه شعرًا، وأَثْبَتَهُ قرآنا، لم تبق شبهةٌ لذي عقلٍ أن القرآن هو هذه السور والآيات.

[7] كذلك قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان]؛ فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان]، وقالوا: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال].

[8] وقال بعضُهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر]، فقال سبحانه: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر]، وما كانوا يُشيرون بهذا القول إلَّا إلىٰ هذا الكتاب العزيز.

[9] وأيضًا: فإنهم طلبوا الإتيان ببَدَلِه، قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ [يونس:15]، أفتَرَاهُم طلبوا تبديل ما في نفس الباري مما لا يعلمونه ولا يدرون ما هو؟! ثم كيف عَلِموا أن في نفس الله تعالىٰ قرآنًا؟! وبأي طريقٍ وَصَلَ إليهم؟! هذا وما كان قائلُ هذه المقالة خُلِق بعد.

والآيات الدَّالة علىٰ أن القرآن هو هذا الكتاب العربي كثيرةٌ، ومَن لم ينتفع بما قد ذكرنا منها لم ينتفع بزيادةٍ عليها، لكنَّا نتحدَّاهم بما تحدىٰ الله تعالىٰ به نُظراءهم مِن الملحدين، فنقول: إن زعمتم أن هذا مِن كلام المخلوقين فأتوا بسورةٍ مثله إن كُنتم صادقين، وإن زعمتم أنه مفترًىٰ من دون الله فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ في هذه الجملة وَجْهَ كون هؤلاء رَادِّين علىٰ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فبيَّن ذلك من وجوهٍ تسعة:

أوَّلها: أنَّ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أخبر أن القرآن يُرتل ويُنزل ويُقرأ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل:4]، وقال: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء]، وقال تعالىٰ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ [النساء:166]، وهذا الذي أخبر اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنه يُرتل ويُنزل ويُقرأ إنما هو هذا الكتاب الذي بين أيدي الناس.

وثانيها: أنَّ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أشار إلىٰ هذا الكتاب غير مرَّةٍ في القرآن الكريم بما يدلُّ علىٰ حاضرٍ، وأنَّ هذا القرآن يَقُصُّ ويَهدِي، والذي يقصُّ ويهدي وهو حاضرٌ بين أيدي الناس هو هذا الكتاب.

وثالثها: أنَّ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ذكر أنَّ كتابه قد صُرِّفت فيه الأمثال وضُربت، وتصريف الأمثال وضربها

وَقَعَ في هذا الكتاب الذي بين أيدي الناس.

ورابعها: أنَّ الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ تَحدَّىٰ معشر الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولا يتحدَّاهم الله عَزَّوَجَلَّ إلا بما يعرفون، أمَّا شيءٌ لا يعرفونه ولا يدرون عنه مما يُسمَّىٰ بالمعنىٰ القائم بالذات؛ فكيف يتحدَّاهم الله عَزَّوَجَلَّ به؟ فدلَّ هذا علىٰ أنه إنما تحدَّاهم بما بين أيديهم مِن كتابٍ.

وخامسها: أنَّ الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ سمَّىٰ كتابه عربيًّا؛ وهذا الكتاب الذي بين أيدينا المُسمَّىٰ بالقرآن هو الكتاب العربي الذي أنزله الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، دون المعنىٰ القائم بالذَّات الذي ادعيتموه؛ فإنكم تزعمون أنه معنًىٰ قائمٌ بالذَّات، وإذا عُبِّر عنه بأي لغةٍ فإنَّ الكتاب المُعَبَّر عنه بتلك اللغة يُضاف إليه، فلمّا عُبِّر عن ذلك الكلام بالسيريانية صار توراةً، ولما عُبِّر عنه بالعربية صار قرآنًا، وهلمّ جرّا.

وسادسُها: أنَّ المشركين قد وصفوا هذا الكلام بأنَّه شعرٌ، وهذا الوصف الذي أراده المشركون ليس واقعًا علىٰ المعنىٰ القائم بالذَّات، وإنما هو واقعٌ علىٰ ما سَمِعُوه مِن كتابٍ يُتلىٰ هو القرآن الذي بين أيدي الناس؛ فإنَّ ما سَمَّوا بذلك هذا الكلام العربي الذي يسمعونه؛ لأنهم لا يطَّلِعُون علىٰ المعنىٰ القائم بالذات.

وسابعُها: أنَّ أولئك المشركين قد زعموا أن ما يُتلىٰ عليهم هو أساطير الأوَّلين، والذي سَلَّط عليه المشركون هذه التُّهَمة إنما هو الكتاب الذي بين أيدي الناس، ولا قصدوا هم عندما قالوا: أساطير الأولين ما قَصَدُوا المعنىٰ القائمَ بالذات.

وثامنُها: أن هؤلاء المشركين فيهم مَن قال: إنَّ هذا قول البشر، وتوعَّده الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر]، وهؤلاء ما قالوا: إنَّ هذا قول البشر؛ إلا وهم يُريدون ما يسمعونه من النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو يتلوه، لا يقصدون بذلك المعنىٰ القائم بالذَّات.

وتاسعُها: أنَّ أولئك المشركين طلبوا الإتيان ببَدَلِه، وهذا الذي طلبوا الإتيان ببدله لا محيد عن أنهم قصدوا به القرآن الذي كان يتلوه عليهم نبيّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لا أنهم طالبوا بتبديل ما في نفس الرب سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مِن المعنىٰ القائم الذي توهَّمه هؤلاء؛ لأن هؤلاء المشركين لا عِلم لهم بذلك، ولا اطِّلاع لهم عليه؛ فلو كان هذا سائغًا لَردَّ المشركون كلَّ ما جاء به النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِن الحق إلىٰ هذه الدعوىٰ؛ ولكن مشركي العرب لما كانوا أفصحَ لسانًا لم يتقوَّلُوا بهذه المقالة، ولا تفوَّهوا بها، ولا زعموا أن هذ الكلام الذي يتلوه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عليهم؛ ما زعموا أنّ هذا الكلام يُضاف إلىٰ غير الله

سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ بل هم يُنازعون النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذه الدعوىٰ، ويُريدون منه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يُبدِّله ويُغيِّره ويُحوِّله.

(والآيات الدالة علىٰ أن القرآن هو هذا الكتاب العربي) الذي بين أيدينا (كثيرةٌ) كما ذكر المصنِّف، وقليلٌ مع هُدًىٰ يُغني عن كثيرٍ مع شبهةٍ، فإنَّ الشبهة إذا استحكمت لم تنفع فيها الأدوية النافعة مِن الأدلة، ومَن كان لقلبه بصيرةٌ ونورٌ أو ألقىٰ السمع وهو شهيدٌ؛ فإنه ينتفع بالقليل ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

وأمّا بيان مخالفتهم لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ:

[1] فإن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ما كان يعتقد قرآنًا سوىٰ هذا القرآن، ولو اعتقد أن هذا ليس بقرآنٍ، وأن القرآن سواه لبَيَّنَه لأُمَّته، فإنه لا يجوز تأخير البيان عن وقته، ثم كيف يكتُم مثل هذا الأمر العظيم وقد أَمَرَهُ الله تعالىٰ بتبليغ رسالته، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة:67]؟

[2] وقد كان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حريصًا علىٰ أمّته، شفيقًا عليهم، رؤوفًا بالمؤمنين رحيمًا عزيزًا عليه ما عنتهم، فكيف يكتم عنهم ما فيه رُشدهم، ويتركهم علىٰ ضلالتهم، ويستر عنهم الحق والصواب، لا يرشدهم إليه، ولا يدلهم عليه، ولا يذكر لهم قولًا في ذلك قليلًا ولا كثيرا؟!

هذا ما لا يعتقده مسلمٌ.

[3] ثم وإن ساغ له كتمان ذلك، فكيف ساغ له أن يُظهر أن القرآن هذا بتلاوته الآيات الدالة علىٰ ذلك، وبقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام:19]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان]، وغير هذا من الآيات؟! وقوله: «**مَنْ قرأ القرآن فأعربه فله بكلِّ حرفٍ عشر حسنات**»، وقوله: «**اقرأوا القرآن قبل أن يأتي قوم يَقْرؤُونه ويُقيمون حروفه إقامة السَّهم، لا يُجاوز تراقِيَهم**».

وغير هذا من الأخبار ممّا يطول؛ ممّا يدل علىٰ أن القرآن هو هذا الكتاب العربي الذي هو السور والآيات والحروف والكلمات، أَفَتُرَاه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أخبرهم أنَّ القرآن هو هذا وهو يعلم أنه غير هذا؛ ليصدُّهم عن الصواب، ويُعميهم عن الهدي، ويُضلهم عن سبيل الله؟!

كلا؛ بل قائل هذه المقالة، وسالِك هذه الضلالة أعمىٰ القلب، ضالٌّ عن القصد، وليس لمن ادعىٰ

هذا علىٰ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في الإسلام نصيبٌ، فإنَّ الله سبحانه شَهِد لرسوله، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ۝٦٧﴾ [الحج]، وقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤﴾ [يس].

ومُقتضىٰ قول هذه الطائفة: أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أَضَلَّ أمتَه بإخباره إياهم أن القرآن هذا الكتاب العربي الذي لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه تنزيلٌ مِن حكيم حميد.

بعد أن فرغ المصنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ مِن بيان مخالفة أولئك للقرآن الكريم، بَيَّنَ مُخالفتهم للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مِن وجوهٍ ثلاثة:

أولها: أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لم يكن يعرف قُرآنًا إلا هذا القرآن، ولا اعتقد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن هناك شيئًا هو القرآن غير هذا الكتاب الذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولو كان النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يرىٰ أنّ هذا ليس بقُرآنٍ، وأنَّ القرآن سواه، وأنه المعنىٰ القائم بالذات= لكان واجبًا عليه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يُبيِّن ذلك لأمَّته؛ لأنَّه إنما بُعث للبلاغ، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز.

وثانيها: أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مأمورٌ بالبلاغ، ومُرسلٌ بالوحي؛ كي يهدي الناس، فكيف يكتم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ما أُمر بتبليغه، لو كان هذا مما يعتقده صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؟، ورحمتُه وشفقتُه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وحِرصُه علىٰ المؤمنين ظاهرٌ في أخباره وسِيرته صلوات الله وسلامه عليه.

وثالثها: لو سُوِّغ هذا الذي ذكرُوه مِن كتمان النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هذا العلم، فكيف يَسُوغ أن يبقىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هذه المدة المديدة وهو يُظهر للخَلْق بما يتلو عليهم مِن آيٍ وبما يُحدث من أحاديث وأخبار بأنَّ هذا كتاب الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، والله عَزَّوَجَلَّ قد قال في حقِّ رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقة]، فإذا كان هذا في بعض الأقاويل فكيف يُتصوّر أن يكون النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ طُول هذه المدة يَنسِب إلىٰ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ هذا الكلام الذي يتلوه، ثم يُقال: إنَّ هذا الكلام الذي يتلوه ليس بقرآن، وأنَّ القرآن معنًىٰ قائمٌ بذات الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؟

هذا لا يقول به مَن عَرف حِرص النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ علىٰ التبليغ، وصِدْق دلائل نبوَّته، وأنَّ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أيّده.

وذكر رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ جملةً مِن الأحاديث التي تندرج تحت هذا الأصل، ولا يخلو حديثٌ مِنها من

ضَعْفٍ؛ لكن هذا المعنىٰ الذي [نظَّره] ظاهرٌ في دلائل كثيرةٍ من القرآن والسنة.

ثم نبَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن مآل مقالة هؤلاء إلىٰ أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَضَلَّ أمته بإخباره إياهم أن القرآن هذا الكتاب العربي الذي يتلوه عليهم، ثم صار بين أيديهم بما كتبوه في صُحفٍ وجرائدٍ ولخافٍ ونخيلٍ وغيرها، ثم صار بعد ذلك في هذا المصحف، ومحالٌ أن يكون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أضلَّهم، وهو إنما بُعث لهدايتهم.

وأما مخالفتهم للمسلمين:

[1] فإنَّ المسلمين أجمعوا علىٰ أن القرآن أُنزل علىٰ محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[2] وأجمعوا علىٰ أنه مُعْجِزُهُ الدَّالُّ علىٰ صِدقه ونبوته.

[3] وأجمعوا علىٰ أن في القرآن ناسخًا ومنسوخًا، ومحكمًا ومتشابهًا، وقصصًا وأمثالًا، وهذه إنما هو هذا الكتاب.

ولما اختلف أهل السنة والمعتزلة في القرآن: هل هو قديمٌ أو مخلوقٌ؟ إنما اختلفوا في هذه السور والآيات لا غير، وقد صرّحوا بذِكر سور القرآن وآياته وحروفه.

فقال أبو بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: "إعراب القرآن أحبُّ إلينا مِن حِفْظ بعض حروفه".

وقال عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "مَنْ كَفَرَ بحرفٍ مِن القرآن، فقد كَفَرَ به كلِّه".

وسمع ابن مسعود رجلًا يحلف بالقرآن، فقال: "أتراه مُكفِّرًا؟ إن عليه بكل آية كفارة".

وقال: " من قرأ القرآن فأعربه، فله بكل حرفٍ عشر حسنات، أمَا إني لا أقول: (الم) حرف، ولكن الألف حرف، واللام حرف، والميم حرف".

وروي نحو ذلك عن ابن عمر.

وروي عن عبد الرحمن بن يزيد أنه قال: "كنَّا نتعلم مِن ابن مسعود التشهد كما نتعلم حروف القرآن".

وقال الحسن: "قرأ القرآن قومٌ فحفظوا حروفه، وضيَّعوا حدوده".

وذكر الأئمة مِن السلف عدد آيات القرآن وحُروفه وكلماته، ولم يزل ذلك مستفيضًا مشهورًا بينهم، واتفقوا علىٰ أنَّ مَن جحد آيةً مِن القرآن أو كلمةً أو حرفًا مُتَّفَقًا عليه فهو كافرٌ، وفي هذا الإجماع تسويد وجه كل مخالِفٍ.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في هذه الجملة نَشْرَ دليل الإجماع وهو الدَّليل الثالث بعد أدلة القرآن

والسنة التي تقدَّمت، فبَيَّن أن هؤلاء قد خالفوا الإجماع مِن ثلاثة وجوهٍ:

فالوجه الأول: هو أن (المسلمين مجمعون علىٰ أن القرآن أُنزل علىٰ محمدٍ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وإنما يعنون بالقرآن هذا الكتاب العربي الذي بين أيديهم.

وثانيها: أنَّ المسلمين مُجمعون علىٰ أن الآية الباهرة التي دلَّت علىٰ صِدق النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونبوته هي القرآن، وهم يريدون بالقرآن هذا الكتاب العربي الذي بين أيديهم.

وثالثها: أنَّ المسلمون مجمعون علىٰ أن (في القرآن ناسخًا ومنسوخًا، ومُحكمًا ومتشابهًا، وقصصًا وأمثالًا)، وعلومًا كثيرة غير هذا، وهم إنَّما يُريدون بالقرآن الذي تنتظم فيه هذه العلوم إنما يريدون هذا الكتاب العربي الذي بين أيديهم.

ولما نشأ الخلاف الأول بين أهل السنة والمعتزلة في القرآن: فإنَّ المعتزلة لم يقولوا: إنّ هذا الكتاب الذي بأيدي الناس ليس بالقرآن؛ ولكنهم قالوا: إن هذا القرآن مخلوقٌ. فالمعتزلة خيرٌ منهم في هذا؛ لأنهم مُقرُّون بأنَّ هذا الكتاب الذي يتلوه الناس بألسنتهم ويحفظونه في صدورهم ويكتبونه في السطور أن هذا الكتاب هو القرآن الكريم؛ لكنهم نازعوا في كون هذا القرآن مخلوقٌ أم غير مخلوقٍ؟ وعقيدة أهل السنة والجماعة أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوقٍ.

ثم نقل رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ما يدلُّ علىٰ صِدق الإجماعات المتقدِّمة مِن تصريح السلف الصالح مِن الصحابة والتابعين مِن أنَّ هذا القرآن له سورٌ وآياتٌ وحروف، وهذه السُّور والآيات والحروف لا تقع إلا علىٰ الكتاب الذي بين أيدي الناس، فأورد في ذلك آثارًا مختلفةً متعددةً:

منها ما جاء عن أبي بكرٍ وعُمر: (إعراب القرآن أحب إلينا مِن حفظ بعض حروفه)، وفيه ضعفٌ، وأتبعه بقول عليٍّ: (مَنْ كَفَر بحرف من القرآن فقد كفر به كله)، وهذا الأثر قد نسبه المصنف أيضًا في «لمعة الاعتقاد» إلىٰ عليٍّ، وبيَّنَّا في «التقريرات علىٰ شرح العلامة ابن عثيمين عليها»، أن هذا مما لا يُعرف مرويًّا عن عليٍّ فيما وُقف عليه، وإنما يُروىٰ عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسندٍ يُصحِّحُ مثلَه جماعةٌ.

ثم ذكر آثارًا كثيرةً في تقرير هذا المعنىٰ.

وهو المستقر عند أهل السنة رَحِمَهُمُ اللَّهُ تعالىٰ: أن القرآن الكريم سورٌ، وأن تلك السور آيات، وأن الآيات حروف، وقد صَنَّف جماعةٌ مِن أئمة السنة في تقرير أنَّ القرآن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه حروفٌ وكلماتٌ؛ إما علىٰ الإفراد، وإمَّا في ضمن الكتب المطولات، ككتاب اللالكائي وكتاب «الشريعة» للآجُري وكتاب «الإبانة» لابن بطة.

ومَن وقف علىٰ كلام السَّلف رَحِمَهُمُٱللَّهُ تعالىٰ رأىٰ إجماعهم مُنعقدًا علىٰ أنَّ هذا الكتاب الذي يُتلىٰ بين أيديهم هو القرآن الذي أنزله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأنه ليس عبارةً ولا حكايةً عن كلام الله كما يقوله أولئك.

وما علمنا مخالِفًا في العصر الأول في أنَّ هذا الكتاب قرآن، حتىٰ إنَّ كَفَرَةَ العرب سمَّوه قرآنًا فقالوا: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس:15]، ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [سبأ:31]، ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت:26]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان:32].

والجن لَمَّا استمعوا القرآن أنصتوا له، وآمنوا به، وسموه كتابا وقرآنا: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن].

ومِن العجب أنَّ المخالِف في هذه المسألة اجترأ علىٰ مخالفة ربِّ العالمين ورسوله الصادق الأمين والجِنَّة والناس أجمعين بغير حجةٍ ولا شُبهةٍ، ولا استنباط آيةٍ، ولا خبرٍ، ولا قول صحابيٍّ ولا إمامٍ مرضيٍّ، مع زعمه أنه مسلمٌ يعتقد أنَّ كلام الله حجةٌ، وكذلك سنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإجماع أمَّته، ثم ترك ذلك كلَّه، كأنه لم يسمع منه شيئًا، ولم يفقه، ولم يمر به، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال].

والكفَّار الذين لا يُؤمنون بالقرآن أقرب إلىٰ العُذر في جحدهم للقرآن مِن هؤلاء الذين يزعمون أنهم يؤمنون به ثم يتركونه بغير حجةٍ، نسأل الله العافية.

بَيَّن المصنِّفُ رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هنا، بشاعة قول مَن قال: إنَّ القرآن الذي بين أيدي الناس ليس كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإنما هو عبارةٌ وحكايةٌ عن المعنىٰ القائم بذات الله عَزَّوَجَلَّ.

ووجه هذه الشَّناعة هو أنَّ الإنس والجن والمسلمين والكفّار قبل هؤلاء كلُّهم مُجمعون علىٰ أنَّ هذا الكتاب الذي بأيدي الناس هو القرآن، فإنَّ كفرة العرب مِن المشركين سمَّوه قرآنًا كما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ عنهم في آياتٍ كثيرةٍ، ذكر المصنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ بعضَها.

كما أنَّ الجن، وهم مِن عالَم الغيب لما استمعوا هذا الكتاب شهدوا بأنَّ هذا هو القرآن الكريم الذي

أنزله الله علىٰ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا كان الإنس والجن والكفّار والمؤمنون علىٰ هذا؛ فإنَّ مَنْ أحدث قولًا بعد قول هؤلاء لا ريب أنه اجترأ علىٰ مخالفة ربِّ العالمين ورسوله الصادق الأمين والجنة والناس أجمعين، ولا حجة له يتعلَّق بها، ولا استنباط صحيحٍ مِن قرآنٍ ولا مِن سنةٍ ولا قول صحابيٍّ ولا إمامٍ مرضيٍ، وهو مع ذلك يزعم كما يذكر عن نفسه بأنّه مسلمٌ، وهو قد تعلَّق قولًا لا يُعرف عند الكفرة، فضلًا أن يعرف عند المسلمين.

ثم بيَّن المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ مزيد شناعة هذا القول، مِن جهة أن الكفار الذين لا يؤمنون بالقرآن أقرب إلىٰ العُذر من هؤلاء؛ لأن الكفار أقرُّوا بأن هذا الكتاب هو القرآن؛ لكنهم لم يُذعِنوا له ولا آمنوا به، وهؤلاء لم يُقرُّوا بأن هذا الكتاب هو القرآن، فالكفَّار خيرٌ منهم مِن جهة الإقرار بأن الكتاب الذي بين أيدي النَّاس هو القرآن الكريم.

❀❀◆❀❀

فإن قال قائلٌ: لا نُسلم أننا خالفنا الإجماع؛ بل قولنا هو مقالة السلف.

قلنا: هاتوا، أخبرونا مَن قال قبلكم: إن هذا القرآن عبارةٌ وحكايةٌ، وأنَّ حقيقة القرآن معنًىٰ قائمٌ في النفس، ليس فيه سورة ولا آية؟!

ومَن قال قبلكم: إنّه ليس في المصحف إلا العفص والزاج، لا فرق بينه وبين ديوان ابن حجاج!

مَن رَدَّ قبلكم علىٰ الله تعالىٰ قَسَمَهُ الذي وصفه بالعصمة، فقال في كتابه الذي أحكمه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة]؟

مَن قال: إنَّ القرآن العظيم غير الكتاب المبين والذكر الحكيم؟

أخبرونا: هل وجدتُّم هذه الضلالة وقبيح هذه المقالة عند أحدٍ مِن المتقدِّمين سوىٰ قائدكم إلىٰ الجحيم، الناكب بكم عن الصراط المستقيم، الذي لم يُعرف له فضيلةٌ في عِلمٍ شرعيٍّ ولا دينٍ مرضيٍّ، سوىٰ علم الكلام المذموم المشؤوم الذي الخير فيه معدوم؛ نشأ في الاعتزال إلىٰ أربعين عامًا يُناظر عليه ويدعو الناس إليه، ثم أثمر ذلك مقالته هذه التي يَرُدُّ بها علىٰ الله سبحانه وعلىٰ نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخالف به المسلمين والجِنّة والناس أجمعين؟

فكيف رضيتم به إمامًا عِوضًا عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

وكيف قَدَّمْتُم قولَه علىٰ قول الله سبحانه؟!

وكيف خالفتم إجماع المسلمين بمجرَّد قوله بلا حجةٍ، سوىٰ مجرد تقليده والمصير إلىٰ قوله؟!

وما عِوضٌ لنا منهاج جَهْمٍ بِمنهاج ابن آمنة الأمين

فلسان حالكم يقول: إن الحق ضاع عن ربِّ العالمين ورسوله الصادق الأمين والصحابة والتابعين والجِنة والناس أجمعين، حتىٰ وجده قائدُكم إلىٰ الجحيم، فدعاكم إليه ونبَّهكم، فأجبتم مقاله، ورضيتم حاله، وقبلتم مُحاله، ونسبتم من لم يُوافقكم علىٰ هذه الضلالة إلىٰ الضلالة، ورميتموه بالجهالة.

وأهل السنة قَبِلوا قول ربِّهم ووصيّته، واتبعوا رسول ربهم وسنته، وسلكوا سبيل سلفهم وطريقته؛ ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام]، والله أعلم.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في هذه الجملة إبطال دعوىٰ مَن يقول مِن هؤلاء: إننا لا نُسلم أننا خالفنا الإجماع؛ بل قولنا هو مقالة السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالىٰ، فأبطل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذا الاعتراض بمُطالبة هؤلاء بخبرٍ صادقٍ عَمَّن قبلهم مِن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين فيه أنَّ هذا الكتاب ليس هو القرآن، ومَن مِن السَّلف قبلكم قد رَدَّ علىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قَسَمَهُ بهذا الكتاب؟ ومَن قال: إن القرآن العظيم هو غير الكتاب المبين والذِّكر الحكيم؟

وهذه المقالة لن تجدوها في قول أحدٍ مِن الصحابة والتابعين ولا أتباع التابعين، وإنما أعلىٰ إسنادُكم فيها ومنتهىٰ رِوايتكم لها إنَّما ينتهي إلىٰ إمامكم الذي أخذ بهذا القول وتعلَّق به ونشره في الناس، وتوهَّم أوهامًا كثيرةً في فَهْم النُّصوص الشرعية، وعَدَلَ عن طريقة السلف المرضية؛ فأخذتم بقوله، وتركتم قول الصحابة والتابعين وأتباع التابعين!

والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ قد قصد بهذه الغارة التي شَنَّها أبا الحسن الأشعري؛ فإنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كان قد قال بهذا القول في مبدإ أمره بعد أن خرج مِن المعتزلة، فلمَّا خرج مِن قول المعتزلة القائلين بأن القرآن مخلوقٌ خَرج إلىٰ هذا القول، وهو القول بأنَّ القرآن معنًىٰ قائمٌ بذات الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وأنَّه ليس هذا الكتاب الذي بين أيدي النّاس.

ثم انتشرت هذه المقالة عن أبي الحسن الأشعري وصار يدعو إليها من يدعو إليها مِن أصحابه وسرت في الناس، ثم هدىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أبا الحسن الأشعري إلىٰ طريقة أهل السنة والحديث في آخر عُمُره، وبيَّن خِلاف هذا المذهب في كتاب «الإبانة» وفي كتاب «مذاهب الإسلاميين»، وذكر أنَّه علىٰ طريقة السلف الصالح، وأنه يُقلِّد في أصول الدِّين ما كان عليه إمام المسلمين في زمانه أحمد ابن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ

تَعَالَىٰ؛ لكن قوله قد سرىٰ في الناس، وانتقل في البلاد بانتشار أصحابه، فلم يزل هذا القول باقي النسبة إلىٰ الأشاعرة إلىٰ اليوم؛ مع أنَّ إمامهم ومُعَظَّمَهم وهو أبو الحسن الأشعري قد رجع -عفا الله عنه- عن هذه المقالة.

ثم نَبَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ إلىٰ أنَّ العبد مهما بلغ تعظيمُه لأحدٍ فإنه لا يرضىٰ به إمامًا عِوضًا عن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يُقدِّم كلامه علىٰ كلام رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا علىٰ كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يجترئ علىٰ مخالفة إجماع المسلمين، ولْيُحَرِّض نفسَه علىٰ قبول ما كان عليه أهل السنة، وأن يجتهد في اتِّباع طريقهم وسلوك سبيلهم؛ فإنهم أحق الفريقين بالأمن والهداية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام].

وهذا أصلٌ عامٌّ في كلِّ بابٍ مِن أبواب الديانة، سواءً فيما يتعلق بأبواب الأخبار، أو أبواب الأحكام، فإنَّ النجاة والسلامة هي في اتِّباع طريقة السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وهم مُقتدون فيما يقولون ويفعلون ويعتقدون بالنبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومَن ظَنَّ أنَّه يستغني بزُبالة عقله، وحُثالة ذهنه، وفصاحة بيانه عن الاقتداء بالسَّلف؛ فإن مآله إلىٰ ضلالةٍ، ولا يغترنَّ أحدٌ بكثرة المُزهِّدين اليوم في طريقة السلف، الزَّاعمين بأن الناس صاروا إلىٰ زمنٍ جديدٍ لا يصلح أن تُسلط فيه نصوص رجال عاشوا في القرون الأولىٰ علىٰ عقول أناس يعيشون في هذه العصور النيِّرة بزعمهم!، وهذا مِن بالغ جهلهم؛ **فإنَّ نور العصور ليس بالعمران والمراكب والقصور؛ ولكن نور العصور هو بالهداية والخير والعلم والإيمان.**

وكان الصَّدر الأول -وإن لم تكن بلادهم عامرةً كعمران بلاد المسلمين اليوم- فهم علىٰ هُدًىٰ ونورٍ وعلمٍ وإيمانٍ وخيرٍ أعظم ممَّا عليه الناس اليوم، فالنَّجاة في اتِّباعهم، والأمر كما قال مالك:

وخيرُ الأمور السالفات علىٰ الهدىٰ وشر الأمور المُحدثات البدائع

نسأل الله العلي العظيم أن يحيينا وإياكم علىٰ الإسلام والسنة، وأن يتوفانا علىٰ الإسلام والسنة، وهذا آخر التقرير علىٰ هذا الكتاب.

والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وعلىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.